العرب
الإثنين 2020/06/08
السنة 43 العدد 11725

# العنصرية جريمة لا تسقط بالتقادم

## متاهة تفضي إلى متاهة لا تحل إلا بتشريعات قانونية مشددة

العنصرية جريمة لا تسقط بالتقادم، ولا يموت أصحابها المطالبون بحقهم في رد الاعتبار، ولو بعد وفاتهم. إنها جرح لا يندمل بسهولة، ذلك أن أي "بلسم" قانوني أو تشريعي، يبقى واهيا وضعيف الفائدة، لمجرد أن تنكشه الذاكرة، فيورثه جد لأحفاده بل ويسافر عبر المكان والزمان، ليغدو رواية تُروى، وثقافة "يجب أن تحيا" ضمن مظلومية تاريخية أشبه بـ"الطبيعة الثانية" على قول سقراط.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

إدانة العنصرية، أمر سهل وفي متناول الجميع، أمّا التحصّن منها والامتناع عنها فقضية في غاية الصعوبة والرهبة والالتباس، ذلك أنها تقترب من المورثات الجينية، وتستمد "مشروعيتها" (الزائفة طبعا) من كتابات وآراء منظّرين وداعمين وسياسيين، ينتصرون لفئة ضد أخرى.

مقتل المواطن الأميركي الأسود جورج فلويد، تحت ركبة شرطي أبيض، يشاركه نفس الجنسية، ويُفترض أن يكون حاميا له، وفق الدستور الأميركي، كان بمثابة "حبة الكرز التي توضع فوق الكعكة"، وفق تعبير شابة أميركية من ذوي البشرة السوداء في تقرير صحافي.

الحق على الإعلام إذن.. والذي تأخر كثيرا في القول بأن الولايات المتحدة دولة تنخرها العنصرية. وهل ينبغي انتظار عدسات الكاميرا، زهاء قرون من الزمن، لفضح الممارسات العنصرية التي تحدث منذ العصر الجليدي الأول.. وبتكتم شديد الرعونة والتستّر؟

### عنصرية مضادة

هل كان على العالم أن ينتظر مصوّرا لإحدى القنوات الفرنسية، كي يعرف مقتل الطفل الفلسطيني محمد الدرّة، برصاص الجنود الإسرائيليين، منذ 20عاما، محتميا بأبيه؟ وهل استمر الأمر كذلك، إلى اليوم الذي افتضح فيه أمر السلطات الإسرائيلية بقتل طفل فلسطيني من ذوي الاحتياجات الخاصة، وهو إياد حلاق، منذ أيام قليلة أم أن الموضوع قد أثير في إعلام الدولة العبرية بشكل نافر، لمجرد أن الضحية كان يشكو من داء التوحد؟ ماذا لو لم يكن يشكو من داء التوحد؟

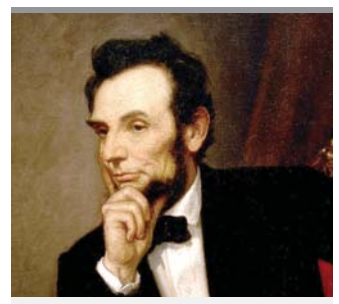

أبراهام لنكولن:
**انهضوا أيها العبيد فإنكم لا ترونهم كبارا إلا لأنكم جاثون على ركبكم**

هل يختلف اثنان في أن العنصرية تمارس ضمن المجتمع الواحد في اللون والدين والعرق والمذهب؟ هل علينا أن نقيس درجة "الولاء" حتى نحدد مغالاة الأول وتنمره على الثاني أم أنّ في الأمر "تقديرا ضمنيا" لا يخلو بدوره من تحيز عنصري؟

إنها متاهة تفضي إلى متاهة، ولا يمكن حلها إلا بتشريعات قانونية مشددة، تجعل الجميع تحت سلطتها، وتضع حدا لهذا التطاول البشري الذي يبدو متأصلا في النفوس.

متى ينهض صوت في إعلامنا المكتوب والمقروء والمسموع ليقول للعرب: لا تنخدعوا بالفبركات الإعلامية والدعايات المزورة كتلك التي روجت لها دعايات مغرضة على السوشيال ميديا، من شاكلة الفوتوشوب الذي يحمل صورة زنوج يحملون شعارا يقول "لسنا عربا كي تقتلونا ونسكت".

الأصعب من إدانة العنصرية التحصن منها

لا تنساقوا وراء البروبغندا المضللة مثل التشكيك في الهولوكوست، والقول بأن اليهود هم الذين ابتدعوها، فذلك سينزع منكم حقوقكم المشروعة ويجعلكم في خانة معاداة السامية أيها العرب الساميون.

هل تناسينا -على سبيل المثال وليس الحصر- أن بلدا عربيا مثل موريتانيا، لا يزال يشهد احتجاجات ضد الرق، في القرن الواحد والعشرين. كما تنشط فيه منظمات، على غرار منظمة "نجدة العبيد" التي تكافح من أجل إنهاء ظاهرة الرق في البلاد، وأن الزواج في هذا القطر العربي الشقيق، ما زال يخضع لمقاييس عنصرية بحتة.

الحقيقة أنّ لهجاتنا العربية ما تزال تنضح عنصرية بغيضة إلى حد الخجل، مثل بعض التسميات في المأكل والملبس والمشرب.. ما معنى اسم "فستق عبيد" مثلا.. أو "فلفل بر العبيد"؟

### بعضهم يحبذها شقراء

لنبتعد عن السياسة قدر المستطاع، ونضع العنصرية في ميزان المجتمع بلغتي الأنا الفردي والأنا الجماعي، وننظر إلى أنفسنا كم نحن "عنصريون" دون أن نكون عنصريين.

إن من الحماقة والرعونة أن نكون مثل الإيرانيين في إعلامهم الأرعن، ذاك الذي ينتقد "عنصرية أميركا" التي يلقبها بـ"الشيطان الأكبر" ثم يأتي بأكثر وأوقح منها. نظام حكم الملالي في طهران، من زجاج، وأوهن من بيوت العنكبوت، فلماذا ينتقد ديمقراطية عريقة مثل الولايات المتحدة؟ ووفق أي ذريعة يتعرض لدستور أنشأه أبراهام لنكولن، الذي أنهى العبودية، واغتيل لأجل ذلك عام 1865.. "أي طحان يغبّر على كلاّس" وفق المثل الشامي المتداول.

وعلى ذكر الشام، فيطيب لي أن أختم بهذه الحادثة: رميت بحبّة حمص مسلوقة وسوداء عندما كنت أطعم طفلي من كيس صغير كنّا قد اشتريناه لتوّنا من بائع متجوّل وأشقر اللون في حديقة عامة.

نظر إليّ الصغير بعين لا تخلو من الغضب والعتاب، وكأنه يحتجّ حول هذه الحركة الاعتباطيّة الرعناء، وزاد من إحراجي قول البائع الأشقر: ألا تعلم أنّ حبّة الحمص السوداء أطيب مذاقا من (الشقراوات) يا أستاذ؟

لست أدري لماذا تذكّرت فيلم مارلين مونرو فجأة "بعضهم يحبّذها شقراء".

جلسنا على مقعد نأكل الحمص المسلوق، ونتفرّج على العابرين بسحناتهم المألوفة أمام بعض المربّيات والخادمات القادمات من قارتي آسيا وأفريقيا، وهنّ يلاعبن أطفال الآباء الذين يعتقدون بأنهم مرفّهون.

إحداهنّ لاعبت ابني الصغير بحب ومرح كبيرين، حاولت مكافأتها بشيء رمزي، لكنها رفضت وقالت بلغة إنجليزية رشيقة "أنا أيضا أتمتّع معه باللعب الذي حرمت منه في صغري"... ثمّ صارحتني بقولها بعد أن استطابت الحديث وشعرت بالأريحيّة والأمان "أجد متعة هائلة في اللهو بألعاب الطفل الذي أرعاه عند غياب والديه من المنزل... بعد عام ينتهي عقد عملي في خدمة هذه الأسرة، وأكثر ما يحزّ في نفسي هو أنّي سأفارقه بعد هذا الوقت الذي لازمته فيه أكثر من أبويه... عموما سأتذكّره دائما لأنّي سأحمل ألعابه القديمة إلى إخوتي الصغار في بلدي".

هل لديك خطيب أو حبيب أو صديق... أو ما شابه؟

نعم بالتأكيد، هو يعمل في أحد المنازل القريبة هنا... لا أحد يتحمّل الغربة دون شريك يا أستاذ.

كيف تتواصلان مع بعضكما... لا شكّ أنّ الأمر صعب؟

نلتقي في نهاية كلّ أسبوع هنا... عند المراجيح، نسرق بعض الوقت... وأحيانا ليلا، عندما نفرغ القمامة في الحاوية التي تفصل بين (فيلّاتينا)... أقصد مكان عملنا.

وهنا قطع ابني حديثنا، وفاجأ الصبيّة بهديّة غريبة... لقد جمع كل حبيبات الحمص السوداء وأهداها للخادمة اللطيفة.

شكرته بحب كبير وقالت له ضاحكة وملاعبة "أنا أيضا أحب الأبيض من الفواكه والشراب واللباس، وإن تخلّى عنّي حبيبي الأسمر يوما فسأتزوّج من بائع الحمص الأشقر هذا، لعلّنا ننجب طفلا يرضي جميع الأذواق ويأكل الحمص دون تفرقة بين حبة شقراء وأخرى بيضاء".

غادرتنا الفتاة اللطيفة السمراء لتلتحق بمن تشرف على خدمتهم وسألت نفسي "إن كانت العنصرية تبدأ في طرف أفكارنا وزوايانا المظلمة فعلا، كما كتب أحد منظّريها 'البيض' من فلاسفة أوروبا؟".

هل تنتقل العنصريّة وتورّث عبر الجينات أم أنّنا تعلّمناها في البيئة الأولى المسمّاة بالعائلة وتدحرجت ككرة ثلج نحو المدرسة والمجتمع لتمسي سلوكا يوميّا وطبيعة ثانية نتنفّسها كالهواء؟

توقّفت عند أماكن شاهدة في غرب أفريقيا.. جدران تقطر منها السلاسل، تعشّش فيها القيود وتخطّ فوقها آثار الدماء المتخثّرة والموشومة على الحائط عند تلك القارة التي تشبه جغرافيتها القلب.

شاءت السلطات في ما بعد أن تجعلها متحفا لضعاف الذاكرة وشاهد عار لأحفاد بيض يخجلون من همجيّة أجدادهم فيتّعظون.. وآخرين سود يتذكّرون ويذكّرون ثمّ يصفحون وينسون... كذلك يكون التسامح الذي لا بدّ منه كقارب وحيد يأخذنا إلى ضفّة السلام.

هل طوينا الصفحة فعلا، هل كشفنا كلّ الظلال المختبئة في زاوية الذاكرة؟... هل اجترحنا حلاّ حقيقيّا يؤاخي بين كلّ الألوان مثل زهرة اللوتس؟

### أحقاد لونية

تذكّرت الشاعر السوداني محمّد الفيتوري صاحب "أحزان أفريقيا" في مخاطبته لرجل أبيض لا يشترك معه إلاّ بلون الكفن "ألأنّ وجهي أسود ولأنّ وجهك أبيض، سمّيتني عبدا، فأكلت بقلي ناقما وشربت كرمي ظالما... إني صحوت من أمسي وذي فأسي تهدّ القبور رمسا برمس... أمدد يديك إلى يدي نشيّد صرح المحبّة شيدا".

ويختم الفيتوري قصيدته بقوله "إني أخوك فلا تعق أخوّتي فتزيد بركانيتي وقدا".

لم تتوقّف العنصريّة على لون بعينه بل أفرزت "أحقادا لونيّة" على شكل ردّات فعل لا متناهية، حتى أنّي اقترحت يوما على صديق فنان أسود اللون و"ملتزم سياسيّا" يؤدّي بفخر واعتزاز أغنية تقول كلماتها "أنا أسمر"، أن يحذف هذه الأغنية من ألبومه فورا لأنها عنصريّة مضادّة، فهل سمعت يوما أحدهم يتغنى بقوله "أنا أبيض"؟!... وقد نغفر لسميرة توفيق التي غنّت يوما "أشقر وشعره ذهب"... عفوا، لماذا كلمة "نغفر"... هي حرّة فيمن تحب، على كل حال.

أظنّ أننّا بدأنا بإزالة العنصريّة تدريجيّا في عالمنا المعاصر، وغفرنا للمتنبّي قوله في لحظة غضب "لا تشتر العبد إلا والعصا معه، إنّ العبيد لأنجاس مناكيد".

أمّا أهمّ أيقونة سمراء في مذبح الحرية فهو أبراهام لنكولن الذي أراد لهذا العالم أن يرى إلى ما تحت الجلد والأضلع... ويجمع في (باليت) الرسام الأميركي كل ألوان الربيع، مهما حاول العنصريون قطع زهوره.

دفع لنكولن حياته بالذهب الأحمر والتي قيل إنها رسمت قارة أفريقيا عندما سالت على الأرض لحظة اغتياله.

أيها الإنسان الذي اشتقّ اسمه من النسيان: تذكّر أنّك ولدت دون اختيار لونك ودينك وبلدك وجيرانك ولغتك ووالديك وحتى الأعداء والأصدقاء.

اليوم، ومن سوريا بالذات، هنّأت صديقا كرديّا بقرار تسليمه هويّة مواطن في أرضه فأجاب مازحا، بلهجة فيها الكثير من المرارة "أخشى أن يكونوا قد منحونا الهويّة كي يقتلونا عليها".

العنصرية -مثل الوباء- تفتك بجميع الناس ودون تمييز طبقي أو ثقافي أو عرقي.. هل بإمكان العنصرية أن تعلمنا الديمقراطية، وذلك وفق مقولة "كلنا عنصريون إلى أن يأتي ما يخالف ذلك"؟

# شاب فلسطيني أراد التنفس أيضا

القدس - ينشغل العالم مؤخرا بقضية قتل جورج فلويد في الولايات المتحدة، كقضية عنصرية خرج الناس من أجلها في شوارع عواصم عدة للاحتجاج على السياسات الأميركية وعلى ديمقراطيتها التي باتت محل شك. تلتها قضية شائكة أخرى مشابهة لها يعيش على وقعها الفلسطينيون بشكل يكاد يكون يوميا منذ عقود.

وأعادت قضية تعمد رجال شرطة إسرائيليين قتل شاب فلسطيني من ذوي الاحتياجات الخاصة طرح ملف عنصرية إسرائيل ضد الفلسطينيين. كما كشفت حجم تباينات الديمقراطيات الغربية لدى تعاطيها مع الجرائم العنصرية بحيث يتم التعامل مع هذه القضايا التي ترتكبها إسرائيل بشكل هامشي.

وسلطت صحيفة "أسوشيتد برس" الأميركية الضوء على قضية إياد الحلاق الذي يعتبر ضحية أخرى من ضحايا القتل الوحشي الذي يتعرض له الفلسطينيون.

ويسرد كاتب المقال جوزيف فيدرمان الحادثة، قائلا "كان إياد الحلاق يحب مشاهدة الرسوم المتحركة. كان يحب ارتداء الملابس الجميلة ووضع العطر. حتى أنه حلم بأن يتزوج يوما ما. وكان نشاطه المفضل يكمن في المشي إلى المدرسة، أين تطوع لإعداد وجبات الطعام في المطبخ لزملائه من ذوي الاحتياجات الخاصة".

وفي أواخر شهر مايو الماضي طاردت القوات الإسرائيلية الفلسطيني البالغ من العمر 32 سنة والذي يعاني من التوحد الشديد في البلدة القديمة بالقدس وأطلقت عليه الرصاص قرب صندوق قمامة بعد أن ظنت أنه يهاجمها.

وتشبه الحادثة بحسب فيدرمان جريمة قتل جورج فلويد في الولايات المتحدة خاصة أنها أشعلت سلسلة من المظاهرات ضد عنف الشرطة الإسرائيلية الموجّه ضد الفلسطينيين.

بالنسبة إلى عائلة الحلاق لم توفر هذه التحركات ضد عنف إسرائيل أي أمل في معاقبة الضباط الذين أطلقوا النار على ابنها البريء، قائلين "كلما استشهد شخص هنا، نقول إننا نأمل في التغيير. أين التغيير؟".

قالت والدته رنا "كان لطيفا". وأكدت أنه كان خجولا، ويخاف من الغرباء، وغير قادر على النظر في عيون الآخرين، ويخاف الأصوات الصاخبة.

وأضافت "كان يحب الملابس الجميلة، ولكنه لم يكن لديه أصدقاء. لا يتحدث إلى الآخرين. كان يكتفي بالحديث معي عما حدث في يوم عمله بالمدرسة".

وبشأن تفاصيل الحادثة ما زال ما حدث صباحا غير واضح. ووفقا للعائلة، ترك الحلاق، الذي كان يرتدي شارة تبيّن أنه من ذوي الاحتياجات الخاصة، منزله ليذهب إلى المدرسة في رحلته اليومية التي تستغرق 10 دقائق فحسب. ويقع منزل العائلة في وادي الجوز بينما توجد المدرسة في البلدة القديمة. وكان إياد يمرّ بشكل شبه يومي أمام الشرطة الإسرائيلية بالقرب من باب الأسباط في القدس القديمة.

قالت الشرطة إن الضباط في البلدة القديمة رصدوا رجلا يحمل ما يشبه المسدس، فأمروه بالتوقف لكنه لم يستجب ما جعلهم يقررون ملاحقته.

وكانت معلمته قريبة منهم، استنجد بها إياد. قالت لعناصر الشرطة إنه من ذوي الاحتياجات الخاصة وطلبت منهم فحص هويته لكنهم أبعدوها وأطلقوا النار على إياد الحلاق.

وقالت لقناة 13 التلفزيونية الإسرائيلية إنها حاولت وقف إطلاق النار. وتابعت "لم يستمعوا إلي. بل لم يريدوا الاستماع إلي".

وقالت إنهم أطلقوا عليه ثلاث رصاصات. سقط إثرها على الأرض، وطلب مساعدتها، ثم ركض للاختباء في زاوية صغيرة بها صندوق قمامة. ركض الضباط بعده وقتلوه.

وقال والدا الحلاق إنهما هرعا إلى مكان الحادث لكنهما لم يستطيعا رؤيته. ثم جاء أفراد الشرطة بعد ذلك إلى منزلهما، وشتموا العائلة وهم يبحثون عن أسلحة. وأكدا أن الشرطة لم تعثر على أي شيء.

وأعلنت وزارة العدل الإسرائيلية عن وضع ضابط من شرطة الحدود تحت الإقامة الجبرية، وعن الإفراج عن قائده مع إخضاعه لظروف مقيدة بينما يتواصل التحقيق في الظروف التي حفّت بإطلاق النار. غير أن الوزارة لم تقدّم المزيد من التفاصيل.

ومع تركيز الاهتمام العالمي على الاضطرابات التي تهز الولايات المتحدة، تردد صدى وفاة الحلاق في جميع أنحاء إسرائيل. وسار عشرات الأشخاص معظمهم من اليهود في وسط القدس للتنديد بإطلاق النار. كما نُظمت مظاهرات في مدن عربية، مستوحاة من الاحتجاجات في الولايات المتحدة، حيث حمل المتظاهرون لافتات كتب عليها "حياة السود مهمة" و"حياة الفلسطينيين مهمة" حملوا صورا لفلويد والحلاق.

**قتل الشاب إياد الحلاق المصاب بالتوحد على طريقة جورج فلويد يكشف مجدّدا عنصرية إسرائيل**

وكتب الإسرائيلي روجل ألفر المعروف بمقالاته في صحيفة هآرتس العبرية، وهو أب لطفل مصاب بالتوحد "يا إلهي، لقد أعدموه. إذا حدث ذلك لابني، لوجدت صعوبة في الاستمرار". وتساءل "هل يوجد شخص أكثر شعورا بالوحشة من مصاب بالتوحد يرتجف قرب كومة قمامة، ولا يفهم ما يجري ولماذا، في حين يفرغ رجال الشرطة الرصاص في جسمه؟".

وجاءت هذه المأساة بعد أسبوعين من إطلاق النار على رجل عربي خارج مستشفى إسرائيلي. وأفادت الشرطة بأن الرجل طعن حارس أمن. وأظهرت لقطات الكاميرا الأمنية الرجل، الذي ورد أنه يعاني من مرض عقلي، ملقى على الأرض عندما أطلق عليه الحراس النار عدة مرات.

أمّا بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية والقدس الشرقية، والأقلية العربية في إسرائيل، فإنّ هذه الحالات تعكس ما يرونه أصابع مستعدة للضغط على الزناد عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع العرب المشتبه بهم.

وبقي رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو صامتا. لكن العديد من كبار المسؤولين، بمن فيهم زعيم المعارضة يائير لابيد (ابنته مصابة بالتوحد)، ووزير الدفاع بيني غانتس عبروا عن حزنهم.

وتعهد وزير الأمن العام، أمير أوحانا، المقرب من نتنياهو، بتقديم تدريبات لأفراد الشرطة لتساعدهم على التعرف على الأشخاص من ذوي الاحتياجات الخاصة. وتوجّه عدد كبير من اليهود والعرب، بمن فيهم حاخام كبير، لزيارة العائلة.

وقالت والدة الحلاق إن كل ذلك لن يعيد ابنها، وإنها كما بقية الأسرة، لا تثق كثيرا في نظام العدالة الإسرائيلي الذي تعتبره متحيزا، فيما قال والده "إذا قتل عربي يهوديا، فماذا يحدث؟ يهدمون منزله ويعتقلون جميع أفراد أسرته. هذا هو الفرق".